«فقـــال: لا إله إلا الله وحده نصر عبده وهـــزم الأحزاب وحده.. الحمد لله الذي صـــدق وعده، ونصر عبده. ألا إن كل مأثرة كانت في الجاهلية تعد وتدعى، وكل دم أو دعوى موضوعة تحت قدمي[1] هاتين، إلا ســـدانة البيت وســـقاية الحاج، ألا وإن قتيل خطـــأ العمد بالســـوط والعصا والحجر ديـــة مغلظة مائة من الإبـــل، منها أربعون في بطونها أولادها»[2]

توالت التوبة تلو التوبة، والبيعة تلو البيعة، وأعطي الطلقاء فرصة كبيرة للتفكير والتروي ومراجعة النفس، والتعود على حياة صافية دون أصنام أو أوثان أو خرافات، لذلك:

قرر النبي ﷺ البقاء في مكة

لمدة تكفي لإذابة ما بقي في نفوس الطلقاء من بقايا الجاهلية.

يقول أحد الصحابة «أقام النبي ﷺ بمكة تسعة عشر يوماً يصلي ركعتين»[3] الظهر ركعتين، والعصر والعشاء كذلك، أما المغرب والفجر فليس فيهما قصر، وكان من عادة النبي ﷺ أن يقصر الصلاة إذا خرج من المدينة مسافة تقارب الثلاثين كيلومتراً.

يقول أنس بن مالك «كان رســـول الله ﷺ إذا خرج مســـيرة ثلاثة أميال، أو ثلاثة فراســـخ صلى ركعتين»[4] والقصر هو أن يؤدي الصلاة ذات الأربع ركعات ركعتين بدلاً من أربع طوال أيام السفر، وهذا ما فعله النبي ﷺ مدة بقائه في مكة، حيث كانت تلك الأيـــام عبارة عن إعطاء الطلقاء فرصة لتغييـــر الزاوية التي كانوا ينظرون من خلالها

---

(١) أي باطلة لا قيمة لها.

(٢) بين كلمة: بالعمد والســـوط قال الراوي: «قال هشيم مرة». سنده قوي رواه أحمد ٣-٤١٠ من طريق خالد الحذاء عن القاسم بن ربيعة بن جوشن عن عقبة بن أوس عن رجل من أصحاب النبي ﷺ: وعقبة تابعي صـــدوق التقريب ٢-٢٦ وتلميذه تابعي ثقة: التقريب ٢-١١٦ وخالد بن مهران تابعي صغير ثقة: التقريب وللحديث شواهد تقوية.

(٣) رواه البخاري ٤-١٥٦٤.

(٤) صحيح مسلم ١-٤٨١. وبعد كلمة فراسخ قال الراوي: «شعبة الشاك» أي الذي تردد في الجزم بأنها ميل أو فرسخ هو شعبة بن الحجاج وليس أنس فيؤخذ بالأكثر لأنه لا شك فيه والفرسخ مسافة تقارب ثمانية كيلومتـــرات. أمـــا الحديث الذي يرويه عبد الوهاب بن مجاهد عن أبيه وعطاء بن أبي رباح عن بن عباس أن رســـول الله ﷺ قال: يا أهل مكة لا تقصروا الصلاة في أدنى من أربعة برد من مكة إلى عســـفان، أي ثمانين كيلو متر، فهو حديث مكذوب، لأن عبد الوهاب كذاب

إلى النبي ﷺ.. زاوية الحسب والنسب والقبيلة، والعادات والتقاليد والتنافس والثأر، لينتقلوا إلى زاوية أخرى.. حيث الصفاء والعقل والاتزان، والتجرد من أثقال الموروثات البالية. تسعة عشر يوماً يفز فيها أكثر من عشرة آلاف مؤمن للصلاة يحيطون بالكعبة، ويملأون البيت الحرام خمس مرات في اليوم والليلة في سكون، وحركات خاشعة رائعة موحدة راكعة ساجدة، خلف رجل واحد هو محمد ﷺ.

مشهد مهيب وجليل اختفت فيه الأصنام والأزلام، وبقي فيه التوحيد نقياً دون شوائب.. مشهد مهيب أخذ عقول الطلقاء إلى المقارنة بين صلاة هؤلاء المؤمنين الخاشعين الراكعين الساجدين، وبين صلاتهم المليئة بالجهل والتخلف والهمجية ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ﴾ أي ما كانت صلاتهم إلا تصفيراً وتصفيقاً كما كانت تعرياً أيضاً، وقد تمكن ﷺ من استمالة كل مكة إلى الإسلام في تلك الفترة القصيرة، حتى هذه المرأة.. زوجة أبي سفيان التي كانت تحمل ضد النبي ﷺ وأصحابه ثارات وأحقاداً سوداء.. تتجه إليه مختارة طائعة، لتبايعه بعد أن أذهلتها أخلاق النبي ﷺ وسماحته وعدالته عن كل ما مضى.

تقول عائشة رضي الله عنها: «جاءت هند بنت عتبة قالت: يا رسول الله.. ما كان على ظهر الأرض من أهل خباء أحب إلي أن يذلوا من أهل خبائك، ثم ما أصبح اليوم على ظهر الأرض أهل خباء أحب إلي أن يعزوا من أهل خبائك.

قال: وأيضاً، والذي نفسي بيده. قالت: يا رسول الله.. إن أبا سفيان رجل مسيك، فهل عليَّ حرج أن أطعم من الذي له عيالنا؟ قال: لا أراه إلا بالمعروف»[1] أي خذي من ماله قدر ما تعارف عليه الناس من مصروف.

إن إسلام هذا الكم من البشر دون إكراه.. دون تصفية حساب أو ثأر في هذه الفترة القصيرة التي لا تتجاوز الأسبوع.. يوحي بأن ثقافة هذا المنتصر مقنعة وجميلة ومعجزة، وأنها لا تحتاج إلى الكثير من العناء للقبول بها، فكل أدوات العناد الهزيلة لا تستطيع التماسك أمامها، أما إذا كان من يحملها دون سلطان أو دولة، فالثقافة المقنعة تحتاج إلى رجال كمحمد ﷺ وأصحابه المهاجرين والأنصار يحملونها بسلوكهم،

---

(١) صحيح البخاري ٣-١٣٩٠. ومعنى مسيك: أي بخيل

وتعاملهم ورحمتهم، لا بالتزامهم في جانب العبادات فقط. فالعبادة بين الإنسان وبين ربه، وقد تقنع فئة قليلة من أصحاب العقول وممتازي البشر، أما دهماء الناس فتنتظر وتنظر دائماً إلى من يقدم لها شيئاً يروي غليلها، ويحقق أحلامها بسلوكه وإنجازه.. عندها يجد التوحيد دروباً فسيحة نحو النفوس، وهذا ما يفعله محمد ﷺ وصحبه الكرام اليوم على أرض مكة وتحت سمائها.

هاهو أحد الرجال القادمين لرصد الأحداث يعود إلى قومه محملاً بالإيمان، فيروي ابنه الصغير بغبطة قصة عودة والده، وقصة المجد الذي توجه به قومه رغم صغر سنه.. أتذكرونه، إنه عمرو بن سلمة ذلك الطفل قصير الثوب المشغول بملاحقة القوافل وحفظ هذا الكلام الجديد (القرآن). ها هو يحدثنا عن براءته وثوبه القصير فيقول: «كنا بماء ممر الناس، وكان يمر بنا الركبان فنسألهم ما للناس ما للناس؟ ما هذا الرجل؟ فيقولون: يزعم أن الله أرسله.. أوحى إليه أو أوحى الله بكذا. فكنت أحفظ ذلك الكلام وكأنما يقر في صدري، وكانت العرب تلوم بإسلامهم الفتح[1] فيقولون: اتركوه وقومه، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق.

فلما كانت وقعة أهل الفتح بادر كل قوم بإسلامهم، وبدر أبي قومي بإسلامهم، فلما قدم قال: جئتكم والله من عند النبي ﷺ حقاً. فقال: صلوا صلاة كذا في حين كذا، وصلوا كذا في حين كذا، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن أحدكم، وليؤمكم أكثركم قرآناً. فنظروا فلم يكن أحد أكثر قرآناً مني، لما كنت أتلقى من الركبان، فقدموني بين أيديهم وأنا بن ست أو سبع سنين. وكانت علي بردة كنت إذا سجدت تقلصت عني[2]. فقالت امرأة من الحي: ألا تغطون عنا أست[3] قارئكم؟ فاشتروا، فقطعوا لي قميصاً، فما فرحت بشيء فرحي بذلك القميص»[4]

فرح الطفل الإمام بثوبه الجديد كعادة الأطفال، ولم يأنف قومه من إمامة طفل لهم في الصلاة، لأن الإسلام يريد ذلك ويستحبه، أما على أرض مكة فما زال المبايعون

---

(١) أي كانت القبائل تنتظر فتح مكة لتعلن إسلامها.
(٢) أي انكشفت عورته لأن ثوبه كان قصيرا جداً.
(٣) صحيح البخاري ٤-١٥٦٤.
(٤) أي عورته.

والطلقـــاء يتوافـــدون على النبي ﷺ، أما المهاجرون والأنصـــار فلم يكن همهم الاحتفال بانتصارهـــم على أرض مكة، ولا اســـتعراض ســـبقهم على طرقاتها.. كانت أنفاســـهم وابتســـاماتهم أطواق نجاة لمن حولهم، وكانت كلماتهم بســـاتين كرم للمتعبين.. ينطلقون في اتجاه كل عقل حائر، وكل قلب متعب بالشرك والضياع، فكما نجح أبو بكر مع والده أسرع البقية إلى من بقي من أرحامهم، بل إن من دخل منهم الإسلام يقوم بعرض قناعته على غيره، وهاهو أحدهم ويدعى مجاشـــع بن مســـعود يبايع النبـــي ﷺ ويقول: «أتيت النبـــي ﷺ أبايعه على الهجرة، فقال: إن الهجرة قد مضت لأهلها، ولكن على الإســـلام والجهاد والخير»[1] ثم يتجه مجاشع إلى أخيه فيقنعه ويأخذ بقلبه إلى النبي ﷺ، ويقول: «جئـــت بأخي أبي معبد إلى رســـول الله ﷺ بعد الفتح فقلت: يا رســـول الله بايعه على الهجـــرة. قال: قد مضت الهجرة بأهلها. قلت فبأي شـــيء تبايعه؟ قال على الإســـلام والجهاد والخير»[2] فقد «قال النبي ﷺ يوم افتتح مكة: لا هجرة، ولكن جهاد ونية، وإذا اســـتنفرتم فانفروا، فإن هذا بلد حرمه الله يوم خلق الســـماوات والأرض، وهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعة مـــن نهار، فهو حـــرام بحرمة الله إلى يوم القيامة.. لا يعضد شـــوكه، ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها[3] ولا يختلى خلاها، قال العباس: يا رســـول الله.. إلا الإذخر فإنه لقينهم ولبيوتهم قال: قال: إلا الإذخر»[4] وهو (حشيش طيب الريح أطول من الثيل)[5]

وقد وافق ﷺ على استثناء الإذخر لحاجة أهل مكة له، أما ما عدا ذلك فلا يجوز لأحد داخل منطقة الحرم قطع شجر، أو مطاردة صيد، أو حتى التقاط شيء ضائع إلا لإيصاله إلى أهله، أو تسليمه لمن يتولى إمارة الحرم.. كان الصحابة يستمعون بإنصات إلى تلك التعليمات وفجأة قال النبي ﷺ:

---

(١) صحيح مسلم ٣-١٤٨٧.

(٢) صحيح مسلم ٣-١٤٨٧.

(٣) أي من وجد شيئا ضائعا في مكة فلا يجوز له أن يأخذه، إلا لكي يبحث عن صاحبه. ومعنى يختلى خلاها أي لا يقطع ولا يزال نباته الذي ينبت من نفسه.

(٤) صحيح البخاري ٢-٦٥١.

(٥) لسان العرب ٤-٣٠٣.

اكتبوا لأبي شاه

يقول أبو هريرة رضي الله عنه: «لما فتح الله عز وجل على رسول الله ﷺ مكة قام في الناس فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن الله حبس عن مكة الفيل، وسلط عليها رسوله والمؤمنين، وإنها لن تحل لأحد كان قبلي، وإنها أحلت لي ساعة من نهار، وإنها لن تحل لأحد بعدي، فلا ينفر صيدها ولا يختلى شوكها، ولا تحل ساقطتها إلا لمنشد، ومن قتل له قتيل فهو بخير النظرين:

إما أن يفدى وإما أن يقتل.

فقال العباس: إلا الإذخر يا رسول الله، فإنا نجعله في قبورنا وبيوتنا؟ فقال رسول الله ﷺ: إلا الإذخر. فقام أبو شاه "رجل من أهل اليمن" فقال: اكتبوا لي يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: اكتبوا لأبي شاه»[1]

وهو إذن منه ﷺ لمشروع تدوين أقواله وأفعاله وتقريراته، حتى لقد تحدث راوية الإسلام أبو هريرة عن امتثال المأخوذين بالرواية فقال «ما من أصحاب النبي ﷺ أحد أكثر حديثاً عنه مني، إلا ما كان من عبد الله بن عمرو، فإنه كان يكتب ولا أكتب»[2]

وبعد أيام بيضاء في مكة، هاجت الذكريات بالحبيب ﷺ، وهزه الشوق إلى مراتع الصبا وذكرياتها الجميله.. اهتز قلبه إلى ذكرى آمنة الحنون، فاتجه إلى قبرها، فكانت الدموع هي الكلمات، وكان الحزن يملأ الجميع.

أحد الصحابة حضر الحدث ورواه فقال: (لما فتح رسول الله ﷺ مكة أتى حرم قبر، فجلس إليه فجعل كهيئة المخاطب، وجلس الناس حوله فقام وهو يبكي. فتلقاه عمر وكان من أجرأ الناس عليه، فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما الذي أبكاك؟ قال: هذا قبر أمي سألت ربي الزيارة فأذن لي، وسألته الاِستغفار فلم يأذن لي. فذكرتها فذرفت نفسي فبكيت. فلم ير يوما كان أكثر باكيا منه يومئذ)[3]

---

(١) صحيح مسلم ٢-٩٨٨.

(٢) صحيح البخاري ١-٥٤.

(٣) سنده صحيح رواه ابن أبي شيبة ٣ - ٢٩ حدثنا محمد بن عبد الله الأسدي عن سفيان عن علقمة بن مرثد عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال، وفي حديث الأسدي عن سفيان الثوري شيء رغم أنه ثقة ثبت، لكنه لم ينفرد، فقد توبع. والحديث مر معنا في وفاة آمنة

طوى عليه السلام ذكرياته وأحزانه، واتجه إلى مكة ليجعل منها واحة للمتعبين.. ينشر فيها التوحيد والعدل والحب والنظافة، يعيد تكوينها بالإسلام، ويعيد لها طهرها، وفي سط هذا الاسترخاء الجميل على سواحل الإسلام، وتحت أشعة شمسه الساحرة كان التوتر يسود مناطق قريبة من مكة، وبالذات تلك المناطق التي تقطنها قبيلة هوازن الهادئة المسالمة.. والشجاعة أيضاً.

هوازن متوترة

فقد أربكتها الإشاعات التي ترددت حول جمع النبي ﷺ لعشرة آلاف مجاهد، وأثارت مخاوفها تلك الحشود.. كانت التخمينات قد ذهبت بهوازن بعيداً، فظنت أن النبي ﷺ يقصدها بذلك الجيش الكاسح، فاستعدت لنزاله استعداداً انتحارياً، ولا أدري من الذي وسوس لها وحرضها، وهي القبيلة التي لم يشهد تاريخها أي تصرف يحسب ضدها. وقد شاركتها هذا الخوف قبيلة ثقيف، وهي أيضاً لم تقم بأي نشاط معاد للنبي ﷺ، سوى ذلك الموقف الذي صدر من بعض رجالها قبل الهجرة. لكن المبادرة جاءت من هوازن فهي الآن «على بكرة أبيها، بظعنها ونعمها وشائها هي في وادي حنين»[1] لم يبق منها ذكر ولا أنثى إلا توجه نحو وادي قريب من مكة يسمى وادي حنين، وقد اختبأوا «في شعابه وأحنائه ومضايقه، وقد أجمعوا وتهيئوا وأعدوا»[2]

كل هذا كان يجري في الوقت الذي كان فيه النبي ﷺ وأصحابه ينعمون بأجواء مكة الهادئة الجميلة، ويقترب عيد الفطر فيخرج المسلمون زكاة الفطر للفقراء والمساكين في مكة، ويواسونهم بطريقة لطيفة لم يتعودوا رقتها من قبل، ويأتي العيد فيصلي المسلمون ﷺ العيد، ويخطب النبي ﷺ بأكثر من عشرين ألفاً من المسلمين والمسلمات، ثم يحتفلون بعيد

---

(١) سنده صحيح رواه في الآحاد والمثاني ٤-١٠٦ والنسائي في الكبرى ٥-٢٧٣ وغيرهما من طريق: معاوية بن سلام عن جده أبي سلام عن أبي كبشة السلولي عن سهل بن الحنظلية رضي الله عنه فأبو كبشة تابعي كبير ثقة: التقريب ٢-٤٦٥ وتلميذه تابعي ثقة أيضاً من رجال مسلم: التقريب ٢-٣٧٢ ومعاوية ثقة من رجال الشيخين: التقريب ٢-٢٥٩.

(٢) سنده صحيح رواه ابن إسحاق - ابن هشام ٥-١١٠ حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن بن جابر عن أبيه رضي الله عنه: عبد الرحمن تابعي ثقة التقريب ١-٤٧٥ وعاصم تابعي ثقة عالم بالمغازي من رجال الشيخين: التقريب ١-٣٨٥.

الفطـــر لأول مرة في مكة، فيرى الطلقاء كم هو جميل هذا العيد بالإســـلام، وكم هو جميل هذا الإسلام الذي ينشر النظافة والفرح والحب، كم هو جميل هذا الدين الذي طالما أغواهم العناد والشيطان بتشويهه، ويرى الطلقاء هذه الاحتفالية الإسلامية المدهشة، فمكة صاخبة بالحركة والحب والتراحم، أكثر من عشـــرين ألفاً يفزون جميعاً خمس مرات يومياً للصلاة، ثم يرونهم بعد أداء الصلاة حول المســـجد يتحادثون بـــود.. يتبايعون بأمانة، ويقرضون دون ربا، ويتصدقون، ويواســـي بعضهم بعضاً، ويقضون أوقاتاً ممتعة ومرحة تدخل البهجة على النفوس.. أهذه مكـــة التي كانت قبل أيام بطيئة مملة كئيبة خائفة وملوثة الأجواء بالأصنام والطبقيـــة والعنصرية والربا والأحقـــاد؟!! لو لم يكن هذا الرجل نبيـــاً لما تغيرت مكة بهذه الطريقة المعجزة، ولو بعد آلاف السنوات.

لكن هذه الأجواء الساحرة تظل بشرية بحتة، إنما موجهة بالوحي النقي والعادل، ومـــا دامت بشـــرية فلا بد من الزلـــل والخطأ، وقد حدث ذلك عندمـــا أقدمت امرأة مخزومية على السرقة، فكانت سرقتها رحمة للمسلمين، ودرساً جديداً للطلقاء.

الجريمة والواسطة

حددت المرأة السارقة، واعترفت بجريمتها.. كانت من قريش «كانت امرأة مخزومية تســـتعير المتاع وتجحده، فأمر النبي ﷺ أن تقطع يدها»[1] «فأتي بها النبي ﷺ فعاذت بأم ســـلمة زوج النبي ﷺ»[2] بعد أن عرفت أن عقوبة الســـرقة هي قطع اليد، وانتشر خبر السرقة في مكة، فاهتز الطلقاء لقطع يد امرأة من أعرق قبائل العرب، لكن تلك النعرة تفتتت أمام العدالة كالجذع المتآكل.

عندها توجه أشـــرف الطلقاء وأرفعهم نســـباً متنازلين إلى شاب يتيم أسود اللون يدعى (أسامة بن زيد) لكي يتوسط عند رسول الله ﷺ لإسقاط حد السرقة عن تلك المرأة، نظراً لمكانتها الاجتماعية، ولأن في تطبيق الحد عليها مساســـاً بتلك المكانة في نظرهم، توجه أولئك الصناديد إلى شـــاب كانوا يرونه قبل أن يسلموا مجرد عبد وابن عبد. لكنه الإسلام يرفع الله به من اعتنقه.

---

(١) صحيح مسلم ٣-١٣١٦.

(٢) صحيح مسلم ٣-١٣١٦.

تقول «عائشـــة زوج النبي ﷺ: إن قريشـــاً أهمهم شأن المرأة التي سرقت في عهد النبي ﷺ في غزوة الفتح، فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ؟

فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسو الله ﷺ.

فأتي بها رســـول الله ﷺ فكلمه فيها أســـامة بن زيد، فتلون وجه رسول الله ﷺ، فقال: أتشفع في حد من حدود الله؟

فقال له أسامة: استغفر لي يا رسول الله.

فلما كان العشـــي قام رســـول الله ﷺ فاختطب، فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: أما بعد.. فإنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا ســـرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإني والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها. ثم أمر بتلك المرأة التي سرقت فقطعت يدها»[1]

عندها تعلم الطلقاء درساً جديداً اسمه المساواة أمام الشريعة والنظام الإسلامي، بعد أن اســـتوعبوا المســـاواة في التعامل والمكافأة، وأيقنوا أنهم أمام وحي لا يزحزحه شيء، فليس بعد فاطمة من قرابة، والقضية لا تتعلق بشخصين أو ثلاثة يمكن التفاهم حول ما أخذ أحدهما من الآخر، بل يتعلق بأمن الناس على أموالهم ودمائهم وأعراضهم، وبالتالي فهو يتناول بشكل خطير أمن الدولة برمتها، فالدولة التي لا تجيد التعامل مع الجريمة لا تستحق أن تسمى دولة، والحياة فيها لا تعرف معنى للرفاه والاستقرار.

لكن تنفيذ العقوبة في الإسلام لا يعني سوى تنفيذ العقوبة فقط، ثم يعود المذنب بعدها بريئاً ليواصل مع غيره مســـيرته في الإبـــداع والإنجاز.. في موكب هذه الدولة العادلة المنطلقة لآفاق الأرض. هذه المرأة لم تُمسح من ذاكرة الأمة، ولم تصادر حقوقها في المواطنة، ولم يكتب في ســـجلها أنها صاحبت ســـوابق. هـــي امرأة أخطأت ونالت عقابها وانتهى الأمر، لقد تابت فـ: «قالت عائشة: فحسنت توبتها بعد، وتزوجت وكانت تأتيني بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ»[2]..

---

(١) صحيح مسلم ٣-١٣١٥.

(٢) صحيح مسلم ٣-١٣١٥.

وقد كان بإمكان أهلها، ومن يهمه أمرها طلب الشفاعة من صاحب المال المسروق، قبل أن يصل الأمر إلى إمام المسلمين وقائدهم وقاضيهم ﷺ، لكن عند وصول الشكوى إلى الإمام تكون الشفاعة قد وصلت إلى طريق مسدود، عندها تتحول الشفاعة في هذه الحالة إلى كبيرة قال عنها النبي ﷺ: «من حالت شفاعته دون حد من حدود الله عز وجل فقد ضاد الله في أمره»[1]

كان تطبيق هذا الحد يعني أشياء كثيرة منها:

تسليم الجميع بوجود دولة عظيمة ذات نظام يرتب حياتها، وينطلق بها مادياً وروحياً، وكان من ضرورات النظام الجديد إزالة كل شوائب الجاهلية وآثارها، التي قد تسبب ارتكاسة للأمة في الحاضر أو المستقبل، ومن أجل ذلك لم يأمر ﷺ بقطع يد إحدى النساء بل أمر بقتلها.. فلماذا:

النبي ﷺ يأمر بقتل امرأة

هذه المرأة لم تسرق مالاً، ولم تقتل إنساناً.. فقط اكتفت بجر الأمة إلى هاوية الشرك. تلك هي العزى التي هتف أبو سفيان باسمها بعد انتهاء غزوة أحد، فما هي العزى، ومن بعث ﷺ من شجعانه للقضاء عليها؟

أحد الصحابة يحدثنا فيقول: «لما فتح رسول الله ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة وكانت بها العزى، فأتاها خالد بن الوليد وكانت على تلال السمرات، فقطع السمرات، وهدم البيت الذي كان عليها، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره، فقال: ارجع فإنك لم تصنع شيئاً. فرجع خالد فلما نظرت إليه السدنة، وهم حجابها، أمعنوا في الجبل وهم يقولون:

يا عزى خبليه..

يا عزى عوريه..

وإلا فموتي برغم..

---

(١) سند صحيح رواه أحمد ٢-٧٠ وغيره من طريق زهير بن معاوية ثنا عمارة بن غزية عن يحيى بن راشد عن ابن عمر سمعت رسول الله. وعبد الرزاق ١١-٤٢٥ وغيره من طريق معمر عن عطاء الخراساني عن ابن عمر.. زهير ثقة: التقريب ٢١٨ وعمارة لا بأس به من رجال مسلم: التقريب٢-٥١ ويحيى ثقة: التقريب ٥٩١.

فأتاها خالد، فإذا امرأة عريانة ناشـرة شعرها تحثو التراب على رأسها، فعممها بالسيف حتى قتلها، ثم رجع إلى النبي ﷺ فأخبره قال: تلك العزى»[1]

ولا أدري هـل هذه المرأة من السـحرة المشـعوذين، أو من مدعـي الألوهية، لكن القضاء عليها كان من حتميات العقيدة الإسـلامية، وإلا فلا معنى للرسالة والنبوة إذا تركت تنشر خزعبلاتها وضلالاتها دون عقاب، فكم سفك من الدماء باسمها.

لكـن في طريق الدولة الإسـلامية الجديدة ما هو أخطر مـن العزى، فالعزى لم تحتمل أكثر من ضربة بالسيف.

هذه الدولة تواجه الآن آخر خطر يقبع في طريقها، وهو ذلك الحشـد الهائل من هوازن، فقد علم النبي ﷺ بتلك التحركات فأرسل جاسوساً ذكياً من أصحابه.. يرصد تحركاتهم وأخبارهم، اسمه عبد الرحمن بن أبي حدرد السلمي رضي الله عنه.

عن ذلك يتحدث جابر بن عبد الله، الذي لم يتخلف عن أي غزوة منذ استشـهاد والده العظيم فيقول إن النبي ﷺ: «لما فرغ من فتح مكة، جمع مالك بن عوف النصري من بني نصر، وجشم ومن سعد بن بكر، وأوزاع من بني هلال، وناساً من بني عمرو بن عاصم بن عوف بن عامر، وأوزعت معهم الأحلاف من ثقيف وبنو مالك، ثم سـار بهم إلى رسول الله ﷺ مع الأموال والنساء والأبناء.

فلما سـمع بهم رسـول الله ﷺ بعث عبد الرحمن بن أبي حدرد الأسلمي فقال: اذهب فادخل بالقوم، حتى تعلم لنا من علمهم.

فدخـل فمكث فيهم يوماً أو يومين، ثم أقبل فأخبره الخبر، فقال رسـول الله ﷺ لعمر بن الخطاب: ألا تسمع ما يقول ابن أبي حدرد؟ فقال: عمر كذب ابن أبي حدرد.

فقال ابن أبي حدرد: إن كذبتني فربما كذبت من هو خير مني.

---

(١) سـنده حسـن رواه أبو يعلى ٢-١٩٦ والنسـائي في الكبرى ٦-٤٧٤ وغيرهما من طريق محمد بن فضيل حدثنا الوليد بن عبد الله بن جميع عن أبي الطفيل قال.. الوليد حسن الحديث من رجال مسلم: التقريب ٢-٣٣٣ والوليد عن أبي الطفيل على شرط مسلم: (٣-١٤١٤ و٤٢١٤٤) وقد توبع في المختارة ٨-٢٢٠ من طريـق أبـي يعلى الموصلي ثنا عبد الله بن عمر بن أبان ثنا عبد الله بن المبارك أخبرني عبيد الله بن أبي زياد عن أبي الطفيل ولعل الضياء رحمه الله قد وهم في هذا السند (انظر صحيح الموسوعة).

فقال عمر: يا رسول الله.. ألا تسمع ما يقول ابن أبي حدرد؟

فقال رسول الله ﷺ: قد كنت يا عمر ضالاً، فهداك الله عز وجل.

ثم بعث رسول الله ﷺ إلى صفوان بن أمية، فسأله أدراعاً مائة درع وما يصلحها من عدتها، فقال: أغصباً يا محمد؟

قال: بل عارية مضمونة حتى نؤديها إليك، ثم خرج رسول الله ﷺ سائراً»[1] بعد أن عين أميراً على مكة.. صحابي اسمه: عتاب بن أسيد، ويبدو من لغة الحوار بين النبي ﷺ وصفوان بن معطل أن صفوان لا يزال على جاهليته، أو أنه أسلم مجاملة.

أخذ ﷺ الأدراع ثم خرج ﷺ إلى:

غزوة حنين بين مكة والطائف

بعد أن تجهز بجيش كبير مؤلف من عشرة آلاف مجاهد قدموا معه قبل الفتح، بالإضافة إلى أعداد غفيرة من الطلقاء الذين أسلموا بعد فتح مكة، وفي الطريق نطق بعض الصحابة المخلصين من الطلقاء ممن أسلم حديثاً، بكلام ينسف ما خرج النبي ﷺ من أجله، بل وما بعث من أجله..

بعض الصحابة يريد تقليد المشركين

يقول أحد المشاركين في تلك الغزوة واسمه الحارث بن مالك: «خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حديثوا عهد بالجاهلية، قال: فسرنا معه إلى (حنين) وكانت كفار قريش ومن سواهم من العرب لهم شجرة عظيمة خضراء، يقال لها (ذات أنواط) يأتونها كل سنة فيعلقون أسلحتهم عليها، ويذبحون عندها ويعكفون عليها يوماً.

فرأينا ونحن نسير مع رسول الله ﷺ سدرة خضراء عظيمة، فتنادينا من جنبات الطريق: يا رسول الله.. اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط؟

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه الحاكم ٣-٥١: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن بن جابر عن أبيه جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ سار إلى حنين. عاصم وشيخه تابعيان ثقتان التقريب ٢٨٦ و٣٣٧ لكن له شاهد عند ابن أبي شيبة ٧-٣٤٨ عن عبد الله بن أبي الهذيل مرسلاً.

قال رسـول الله ﷺ: الله أكبر؛ قلتم والذي نفس محمد بيده كما قال قوم موسى لموسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة. قال: إنكم قوم تجهلون إنها السنن، لتركبن سنن من كان قبلكم»[1] أي سوف تقلدون اليهود النصارى في بدعهم.

صحح النبي ﷺ تلك الزلة، ثم أخذ صحابته نحو حنين، «ساروا مع رسول الله ﷺ يوم حنين، فأطنبوا السير حتى كانت عشية فحضرت الصلاة عند رسول الله ﷺ، فجاء رجل فارس فقال: يا رسـول الله.. إني انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا، فإذا أنا بهوازن على بكرة آبائهم، بظعنهم ونعمهم وشائهم اجتمعوا إلى حنين.

فتبسـم رسـول الله ﷺ وقال: تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله، ثم قال: من يحرسـنا الليلة؟ قال أنس بن أبي مرثد الغنوي: أنا يا رسول الله. قال: فاركب. فركب فرسـاً له فجاء إلى رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: استقبل هذا الشعب حتى تكون في أعلاه، ولا نغرن من قِبَلِكَ الليلة[2].

فلما أصبحنا خرج رسـول اللـه ﷺ إلى مصلاه، فركع ركعتين ثم قال: هل أحسسـتم فارسكم؟ قالوا: يا رسول الله.. ما أحسسناه. فثوب[3] بالصلاة، فجعل رسول الله ﷺ يصلي وهو يلتفت إلى الشعب[4]، حتى إذا قضى صلاته وسلم قال: أبشروا فقد جاءكم فارسكم.

فجعلنا ننظر إلى خلال الشجر في الشعب، فإذا هو قد جاء حتى وقف على رسول الله ﷺ، فسـلم، فقال: إني انطلقت حتى كنت في أعلى هذا الشـعب.. حيث أمرني رسـول الله ﷺ، فلما أصبحت اطلعت الشعبين كليهما، فنظرت فلم أر أحداً. فقال له رسـول الله ﷺ هل نزلت الليلة؟ قال: لا إلا مصلياً أو قاضياً حاجة. فقال له رسـول الله ﷺ: قد أوجبت[5]، فلا عليك أن لا تعمل بعدها»[6]

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق (السيرة النبوية ٥-١١٠) حدثني ابن شهاب الزهري عن سنان بن أبي سنان الدؤلي عن أبي واقد الليثي أن الحارث ابن مالك.. الزهري إمام ثقة مر معنا كثيراً وشيخه تابعي ثقة من رجال الشيخين والبقية صحابة.

(٢) أي احذر أن تسهو فيفاجئنا العدو من الجهة التي تراقبها.

(٣) نادى للصلاة.

(٤) كان يلتفت لأنها صلاة خوف.

(٥) أي فعلت فعلا يوجب دخولك الجنة.

(٦) سـنده صحيح مر معنا تحت عنوان: هوازن متوترة وهذا لفظ أبي داود ٣-٩ والحديث من طريق معاوية ابن سلام عن زيد بن سلام سمع أبا سلام حدثني أبو كبشة حدثه سهل..

بشـــر النبي ﷺ صاحبه بثواب عظيم لا يضره معه -ربما- أن لا يقوم بشـــيء من النوافـــل، كما بشـــر أصحابه بالنصر والغنائم الهائلة التي ســـاقتها هوازن معها بتهور وانتحارية غير معهودة، ولم تكن هوازن وحدها فقد انضمت إليها قبيلة أخرى.

غطفان وغيرهم ينضمون إلى هوازن

اســـتطاع زعيم هوازن مالك بن عوف أن يحرض من بقي من المشركين حوله على قتال النبي ﷺ والقضاء عليه بعد أن فشلت قريش في ذلك، فقد «جمع مالك بن عوف النصري:

من بني نصر

وجشم

ومن سعد بن بكر

وأوزاع من بني هلال

وناساً من بني عمرو بن عاصم بن عوف بن عامر

وأوزعت معهم الأحلاف من ثقيف

وبنو مالك.

ثم ســـار بهم إلى رســـول الله ﷺ وسار مع الأموال والنســـاء والأبناء»[1] ولم تكن غطفان وغيرها أقل انتحارية ولا أقل حماساً في الاستعداد للجيش المسلم فـ:

ماذا أحضر المشركون معهم

لا يصدق المرء ما قام به مالك بن عوف ومن معه من زعماء المشركين في حشدهم لقتال النبي ﷺ، فقد شل محمد ﷺ وأصحابه تفكيرهم، فأقدموا على إحضار النساء والأطفال وكل حيوان أليف تملكه هوازن وغطفان.

---

(١) سنده صحيح وهو حديث ابن إسحاق السابق عن جابر ومن طريقه رواه الحاكم ٣-٥١.

obeikandl.com

يقول أحد الصحابة المشـــاركين رضي الله عنهم: «لما كان يوم حنين أقبلت هوازن وغطفان وغيرهم بنعمهم وذراريهم، ومع النبي ﷺ عشرة آلاف ومن الطلقاء»[1]

إن أشـــخاصاً فعلوا هذا لا يمكن وصفهم إلا بالتهـــور، فالحكيم يخوض الحرب وهو يحســـب حســـابات النصر والهزيمة معاً، فإن انتصر فقد حقق ما يريد، وإن خسر فلا بد مـــن خاســـر والأيام تمنح له أكثر مـــن فرصة، لكن مالك زعيم هـــوازن الآن رجل المغامرة والمقامرة.. رجل الفرصة الواحدة.. ربما لثقته ببســـالة جيشه. ولم يكن المسلمون أقل ثقة منهم، فقد أعجبتهم كثرتهم حتى خيل لبعضهم أن لا أحد يستطيع أن يهزمهم بعد اليوم.

أخبرنا الله ســـبحانه عن تلـــك المعنويات فقـــال: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ﴾ لدرجة أن «خرج شبان أصحابه وإخفاؤهم حســـراً ليس عليهم سلاح، أو كثير ســـلاح»[2] هذه الكثرة قد ترفع المعنويات، لكنها قد تسحب خلفها غروراً يكبد الكثير من الضحايا والخسائر، فالنصر من عند الله، لكنه لا يتحقق إلا بمجهود بشـــري أمر الله بتنفيذه بدقة، ولن ينصر الله جيشـــاً مسلماً مفرطاً متهاوناً، أو مخالفاً للأوامر، أو غير مستعد. لذلك لا بد من تلافي الأخطاء التي تكلف أثماناً باهظة.. حتى لا يقع الجيش المسلم في فخ غزوة أحد مرة أخرى.

تعالوا نقرأ تفاصيل حنين، ففيها الكثير من المفاجآت.. تعالوا إلى:

وادي حنين وأرضها

فهي الآن تحت سيطرة جيش المشركين، ويبدو من شهود العيان أن المشركين قاموا بتنظيـــم مـــا معهم من قوات وغير قوات.. بمنتهى التهـــور والدهاء معاً، بل ربما قاموا باستنســـاخ خطة النبي ﷺ في غزوة أحد مع اختلاف التضاريس. فبينما كانت أرض أحد تحتوي جبالاً اســـتغلها ﷺ أفضل استغلال.. نجد أرض حنين تحتوي على أودية اســـتغلها قادة هوازن وغطفان بشكل سليم، أما تخطيط مشركي هوازن وغطفان ومن معهما لتسيير المعركة[3] فهو كالتالي:

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٥٧٦.

(٢) صحيح مسلم ٣-١٤٠٠.

(٣) هذا الاستنتاج بنيته على مجموع الأحاديث الصحيحة فقط لمجريات المعركة.

قسمت هوازن وغطفان جيشها إلى قسمين:

أولاً- قسم أمامي، ومكانه مقدمة بطن الوادي، أو لنقل مدخل الوادي، وهو خط المعركة الأول، وقد قسمه المشركون إلى أربعة صفوف، أو أربع مجموعات يقف بعضها خلف بعض وهي:

الصف الأول: الفرسان.

الصف الثاني: المقاتلون من الرجال والشباب.

الصف الثالث: الأقل قوة، وهم النساء والشيوخ والأطفال.

الصف الرابع: ومهمته معنوية، وهو مكون من الأغنام.

الصف الخامس: ومهمته معنوية أيضاً، وهو مكون من بقية الأنعام.

وقد عبر أحد جنود الإسلام عن إعجابه بتلك الصفوف، وهو أنس بن مالك رضي الله عنه فقال: «افتتحنا مكة، ثم إنا غزونا حنيناً فجاء المشركون بأحسن صفوف رأيت؛

فصفت الخيل

ثم صفت المقاتلة

ثم صفت النساء ومن وراء ذلك

ثم صفت الغنم

ثم صفت النعم»[1]

ثانياً- قسم الرماة، وقد تترس هؤلاء بتجاويف الوادي وتعرجاته، ويبدو أنهم في مكان مرتفع، بحيث يسهل عليهم إصابة المسلمين من خلاله، وعن ذلك يقول جابر رضي الله عنه: «لما استقبلنا وادي حنين، انحدرنا في وادي من أودية تهامة، أجوف حطوط[2] إنما ننحدر فيه انحداراً، وفي عماية الصبح، وكان القوم قد سبقونا إلى الوادي فكمنوا لنا في شعابه وأحنائه ومضايقه، وقد أجمعوا وتهيئوا وأعدوا»[3]

---

(١) صحيح مسلم ٢-٧٣٦.

(٢) شديد الانحدار .

(٣) سنده صحيح رواه ابن إسحاق - ابن هشام ٥-١١٠ حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن بن جابر عن أبيه: عاصم وشيخه تابعيان ثقتان التقريب ٢٨٦ و٣٣٨ .

أما جيش المسلمين فكان كالعادة منظماً ومقسماً، يقول أنس: «وعلى مجنبة خيلنا خالد ابن الوليد»، وهذا يدل على أن هناك جناحاً أيمن وآخر أيسر، وقلباً يقوده النبي ﷺ، لكن النبي ﷺ كان يشعر ببعض الخوف ليس من الأعداء، فما خرج إلا وقد أعد لهم واستعد. لكن خوفه كان منصباً على جيشه العظيم الذي يحقق الانتصارات، كما لا ينسى أن الإنسان في أوج انتصاراته لا يزال إنساناً مخلوقاً، ولا بد لهذا المخلوق أن يظهر ويبطن الامتنان لخالقه.. تحت أي ظرف من الظروف.

ها هو ﷺ، وبعد كل صلاة فجر يحرك شفتيه، فيتساءل الصحابة عن تلك الأحرف التي لا يسمعونها، ويشعرون بالشوق إليها؟

يقول الصحابي المهاجر الصابر المجاهد صهيب الرومي رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ كان أيام حنين يحرك شفتيه بعد صلاة الفجر بشيء لم نكن نراه يفعله، فقلنا: يا رسول الله إنا نراك تفعل شيئا لم تكن تفعله، فما هذا الذي تحرك شفتيك؟ قال: إن نبيا فيمن كان قبلكم أعجبته كثرة أمته، فقال: لن يروم هؤلاء شيء.

فأوحى الله إليه: أن خير أمتك بين إحدى ثلاث: أما ان نسلط عليهم عدوا من غيرهم، فيستبيحهم، أو الجوع، وإما أن أرسل عليهم الموت. فشاورهم. فقالوا: أما العدو فلا طاقة لنا بهم، وأما الجوع فلا صبر لنا عليه، ولكن الموت. فأرسل عليهم الموت فمات منهم في ثلاثة أيام سبعون ألفا.

قال رسول الله ﷺ: فأنا أقول الآن حيث رأى كثرتهم: اللهم بك أحاول وبك أصاول وبك أقاتل»[1] «اللهم إنك إن تشأ لا تعبد بعد هذا اليوم»[2]

بالدعاء كان ﷺ يبدأ معاركه، أما هوازن ومن معها، فبدأت معركتها ببث جواسيسها لرصد تحركات وتجهيزات النبي ﷺ، وقد تمكن أحدهم من أن يندس بين

---

(١) سنده صحيح رواه الإمام أحمد ٤-٣٢٢: حدثنا عفان عن حماد بن سلمة عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب. عبد الرحمن تابعي ثقة كبير وعفان إمام معروف وكذلك بقية السند. وهو أصح من لفظ خيبر كما بينت في صحيح الموسوعة.

(٢) سنده ثلاثي صحيح رواه ابن أبي شيبة ٧-٤١٦ حدثنا يزيد بن هارون عن حميد عن أنس قال كان من دعاء النبي يوم حنين: يزيد وحماد ثقتان معروفان وحميد سمع من أنس.

جنـــد النبي ﷺ، لكن نظراته وحركاته، وربما ألفاظـــه أفصحت للنبي ﷺ عن هويته، فكانت هذه القصة التي تم فيها:

القبض على جاسوس هوازن

يقـــول الفارس ســـلمة بن الأكـــوع، والذي كلـــف بمهمة القبـــض أو القضاء على الجاسوس: «غزونا مع رسول الله ﷺ هوازن، فبينا نحن نتضحى[1] مع رسول الله ﷺ، إذ جـــاء رجل على جمل أحمر فأناخه، ثـــم انتزع طلقاً من حقبه[2] فقيد به الجمل، ثم تقدم يتغدى مع القوم، وجعل ينظر.. وفينا ضعفة ورقة في الظهر، وبعضنا مشـــاة. إذ خرج يشـــتد فأتى جمله فأطلق قيده، ثم أناخه وقعد عليه فأثاره، فاشـــتد به الجمل، فاتبعه رجل على ناقة ورقاء.

قال ســـلمة: وخرجت أشتد، فكنت عند ورك الناقة، ثم تقدمت حتى كنت عند ورك الجمـــل، ثـــم تقدمت حتى أخذت بخطـــام الجمل فأنخته. فلما وضـــع ركبته في الأرض اخترطت سيفي فضربت رأس الرجل فندر، ثم جئت بالجمل أقوده عليه رحله وسلاحه.

فاستقبلني رســـول الله ﷺ والناس معه فقال: من قتل الرجل؟ قالوا: ابن الأكوع، قال: له سلبه أجمع»[3]

حصل ابن الأكوع على ســـلب الجاســـوس، وتخلص المســـلمون من شره واطمأنوا إلى عدم وصول معلومات لأعدائهم، وتهيأ النبي ﷺ ومن معه لقتال المشـــركين وتواجه الجيشان فـ:

كيف سارت المعركة على أرض حنين

فـــي البداية كانت المواجهة بين الجيشـــين على أرض الـــوادي.. دون تدخل رماة المشـــركين، وعندما التحم الجيشـــان هجم المســـلمون ببســـالتهم المعروفة، فاكتسحوا عدوهم وهزموهم، بل وطاردوهم. وكان فارس الإسلام (أبو قتادة) أحد هؤلاء.

---

(١) أي نتغدى.

(٢) أخرج حبلا من حقيبته.

(٣) صحيح مسلم ٣-١٣٧٤.

يقــول رضي الله عنه «خرجنا مع رســول الله ﷺ عام حنــين، فلما التقينا كانت للمســلمين جولة، فرأيت رجلاً من المشــركين علا رجلاً من المسلمين، فاستدرت حتى أتيتــه من ورائه، حتى ضربته بالســيف على حبل عاتقه، فأقبــل عليّ فضمني ضمة وجدت منها ريح الموت، ثم أدركه الموت فأرســلني»[1] وسقط ذلك المشرك جثة هامدة، وهرب المشركون من أرض المعركة، فلاحقهم المسلمون، لتتكرر المأساة والأخطاء.

يقول البراء: «لما حملنا عليهم انكشفوا فأكببنا على الغنائم»[2] وبدأ الطلقاء يجمعون الغنائم الهائلة التي خلفتها هوازن ومن معها، ومرة أخرى تطل المأساة برأسها البشع.. مرة أخرى يرتكب بعض المؤمنين الخطأ نفســه، لكنهم معذورون فهم لم يحضروا، ولم يتجرعوا كأس أُحد المر.. مرة أخرى:

الغنائم والرماة يهزمون المسلمين

الغنائم هي الغنائم، لكن الرماة ليســوا هم الرماة.. إنهم رماة هوازن، وهم دقيقوا التصويب، وعندما وصل الجيش المسلم إلى مرمى تلك السهام وهو يطارد تلك الفلول الهاربة.. انهمر سيل الســهام من تلك التجاويف والمنحنيات، فقد كان الوادي مفخخاً بالرمــاة البارعــين، وقد أعان الرماة فــي مهمتهم ذلك الارتباك الــذي أحدثه تكالب الطلقاء على الغنائم، وهم لا يعلمون أنها ليســت للنهب ولا لمن ســبق. ولك أن تتصور جيشاً قوامه أكثر من عشرة آلاف مقاتل.. يتدفق مسرعاً مدمراً كالموج خلف عدوه، ثم تعتــرض طريقه مجموعة من أفراده بطريقة غير منظمة، لالتقاط غنائم في الطريق؟ لقــد تحــول الجيش مرة أخرى إلى كومــة من الفوضى.. زاد فــي بعثرتها ذلك الموت المنهمر من سهام المشركين.

يقول البراء نافياً تهمة الفرار عن الرسول عندما سئل: «أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين؟ فقال: لكن رســول الله ﷺ لم يفر، كانت هوازن رماة، وإنا لما حملنا عليهم انكشفوا، فأكببنا على الغنائم فاستقبلنا بالسهام»[3] «والله ما ولى النبي ﷺ، ولكن ولى

---

(١) صحيح البخاري ٣-١١٤٤.

(٢) صحيح البخاري ٤-١٥٦٨.

(٣) صحيح البخاري ٤-١٥٦٨.

سـرعان الناس، فلقيهم هوازن بالنبل، والنبي ﷺ على بغلته البيضاء، وأبو سفيان بن الحارث آخذ بلجامها، والنبي ﷺ يقول:

أنـا النـبـي لا كـذب أنـا بـن عـبـد المـطـلـب»[1]

وكان كثير ممن ولى لم يستعد للحرب استعداداً يليق بها.. ظناً أن هذا الجيش الضخم ليس من الممكن هزيمته، فقد «خرج شبان أصحابه وإخفاؤهم حسراً[2] ليس بسلاح فأتوا قوماً رماة (جمع هوازن وبني نصر) ما يكاد يسقط لهم سهم، فرشقوهم رشقاً ما يكادون يخطئون، فأقبلوا هنالك إلى النبي ﷺ وهو على بغلته البيضاء، وابن عمه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يقود به، فنزل واستنصر ثم قال:

أنـا النـبـي لا كـذب أنـا بـن عـبـد المـطـلـب»[3]

كان صوتا يتأجج حماساً وثباتاً مثيراً، لكنه لا يجد حوله سوى غبار الطلقاء، الذين ولوا تاركين غبارهم يخنق أرض حنين:

ثم هرب بعدهم الأعراب

يقول أنس: «فجعلت خيلنا تلوي خلف ظهورنا، فلم نلبث أن انكشفت خيلنا، وفرت الأعراب ومن نعلم من الناس»[4]

وقد ساهمت منحدرات الوادي في هزيمة المؤمنين.. ساهمت في وقوعهم في الفخ المعد لهم، حيث يصف جابر ذلك الوادي وما حدث فيه فيقول: «كان القوم قد سبقونا إلى الوادي فكمنوا لنا في شعابه وأحنائه ومضايقه، وقد أجمعوا وتهيئوا وأعدوا، فوالله ما راعنا ونحن منحطون إلا الكتائب قد شدوا علينا شدة رجل واحد، وانشمر الناس راجعين لا يلوي أحد على أحد»[5] إلا النبي ﷺ فقد كان كما وصفه

---

(١) صحيح البخاري ٣-١٠٥٤.

(٢) الحفيف هو غير المثقل بالعتاد، والحسر أي دون دروع.

(٣) صحيح البخاري ٣-١٠٧١.

(٤) صحيح مسلم ٢-٧٣٦.

(٥) سنده صحيح مر معنا قبل قليل رواه ابن إسحاق السيرة النبوية ٥-١١٠ حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن بن جابر عن أبيه جابر ومعنى: انشمر الناس أي أسرعوا.

البـــراء بن عازب وهـــو يتحدث عن الفرار يوم حنين بقوله: «أشـــهد على نبي الله ﷺ ما ولى»[1] «كنا والله إذا احمر البأس نتقي به، وإن الشـــجاع منا للذي يحاذي به يعني النبي ﷺ»[2]

لقد توجه ﷺ نحو الوثنيين بمفرده بعد أن «ولى المســـلمون مدبرين، فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته نحو الكفار»[3]

كان مشهد الهروب محزناً لفارس الإسلام أبي قتادة الذي يقول عن تلك اللحظات: «لما التقينا كانت للمســـلمين جولة، فرأيت رجلاً من المشركين علا رجلاً من المسلمين، فاســـتدرت حتى أتيته من ورائه حتى ضربته بالســـيف على حبـــل عاتقه، فأقبل عليّ فضمنـــي ضمـــة وجدت منها ريح الموت، ثـــم أدركه الموت فأرســـلني. فلحقت عمر بن الخطاب فقلت: ما بال الناس؟ قال: أمر الله»[4]

ففـــرار جيش بهذا الحجم شـــيء لا يصدقه عمر، «وانحاز رســـول الله ﷺ ذات اليمن، ثم قال: أين أيها الناس؟ هلموا إلي أنا رســـول الله.. أنا محمد بن عبد الله.... فلا شيء.

حملت الإبل بعضها على بعض، فانطلق الناس، إلا أنه قد بقي مع رســـول الله ﷺ نفـــر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته، وفيمن ثبـــت معه من المهاجرين أبو بكر وعمر، ومـــن أهل بيتـــه علي بن أبي طالب، والعباس بن عبد المطلب، وأبو ســـفيان بن الحارث، والفضل بن العباس، وربيعة بن الحارث، وأسامة بن زيد، وأيمن بن عبيد - قتل يومئذ.

ورجـــل من هوازن على جمل له أحمر، بيده راية ســـوداء فـــي رأس رمح له طويل أمـــام هوازن، وهوازن خلفـــه، إذا أدرك طعن برمحه، وإذا فاتـــه الناس رفع رمحه لمن وراءه، فاتبعوه، وأبو ســـفيان بن حرب وبعض الناس يشمت بالمسلمين»[5]. ويتوقعون بل يتمنون هزيمة ساحقة للمؤمنين، لكن النبي ﷺ لم يترك مساحة أكبر من هذه لانشراح

---

(١) صحيح مسلم ٣-١٤٠١.

(٢) صحيح مسلم ٣-١٤٠١.

(٣) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٣٩٨ والنسائي في السنن الكبرى ٥-١٩٧ واللفظ له.

(٤) صحيح البخاري ٣-١١٤٤.

(٥) ســـنده صحيح مر معنا رواه ابن إســـحاق - ابن هشـــام ٥-١١٠ حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن بن جابر عن أبيه رضي الله عنه

قلوب هؤلاء الشـــامتين، فمثل هذه الحالات الشديدة والحرجة يصعب تجاوزها بأمثال الطلقاء.. الذين لم يقضوا فترة تربوية كافية على يد النبي ﷺ. ولهذا صاح النبي عليه الســـلام يستدعي البنائين الأوائل للدولة الإسلامية.. الذين شيدوها بدمائهم وعرقهم وإيمانهم.. صاح بهم وناداهم «نادى رسول الله ﷺ: يال المهاجرين.. يال المهاجرين. ثم قال: يال الأنصار.. يال الأنصار...»[1] قال أنس «قلنا: لبيك يا رسول الله»[2]

وحتى يصل الصوت أقصى مدى.. استعان النبي ﷺ بعمه الثابت الشجاع العباس بن عبد المطلب، والذي يمسك الآن بلجام بغلة نبيه.. يواجه بها عاصفة هوازن ونبالها، ويقول «إني لمع رسول الله ﷺ آخذ بحكمة بغلته البيضاء قد شجرتها بها، وكنت امرءاً جســـيماً شـــديد الصوت، ورســـول الله ﷺ يقول حين رأى ما رأى من الناس: أين أيها الناس؟ فلم أر الناس يلوون على شيء...

فقال: يا عباس اصرخ: يا معشر الأنصار.. يا معشر أصحاب السمرة.

فأجابـــوا: لبيك.. لبيك. فيذهب الرجل ليثـــي بعيره فلا يقدر على ذلك، فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه، ويأخذ ســـيفه وترسه، ويقتحم عن بعيره ويخلي سبيله، فيؤم الصوت حتى ينتهي إلى رسول الله ﷺ. حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة استقبلوا الناس، فاقتتلوا. وكانت الدعوى أول ما كانت: ياللأنصار.. ثم خلصت أخيراً: ياللخزرج. وكانوا صبراً عند الحرب.

فأشرف رســـول الله ﷺ في ركائبه، فنظر إلى مجتلد القوم وهم يجتلدون فقال: الآن حمي الوطيس»[3] والجلاد والقتال واســـتعر كالبـــركان، وقد كان الصحابة الذين حضـــروا المعركة ورووا أحداثها قلة.. كانوا كالغصن وســـط تلـــك الغابة التي تجاوزت العشرين ألف مقاتل من الطرفين، لذلك كان قرب معظمهم من النبي ﷺ أثناء المعركة نـــادراً وللحظات، فكان كل صحابي يروي المشـــهد الـــذي رآه، والحالة التي كان عليها النبي ﷺ أثناء مروره فقط.

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم ٢-٧٣٦.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم ٢-٧٣٦.

(٣) سنده صحيح رواه ابن إسحاق السيرة: ٥-١١٠ حدثني الزهري عن كثير بن العباس عن أبيه العباس ابن عبد المطلب قال: وهذا السند صحيح الزهري تابعي إمام ثقة أشهر من أن يعرف وشيخه صحابي صغير.

أحـــد هؤلاء الصحابة مر بالنبي ﷺ أثنـــاء الهزيمة، فرأى صحابياً يدعى زيد مع النبي ﷺ، فوصف ذلك المشـــهد بقوله: «إن رســـول الله ﷺ يوم حنين انكشـــف الناس عنه، فلم يبق معه إلا رجل يقال له زيد.. آخذ بعنان بغلته الشـــهباء، وهي التي أهداها له النجاشي، فقال رسول الله ﷺ: ويحك يا زيد.. ادع الناس.

فنادى: أيها الناس هذا رسول الله يدعوكم. فلم يجب أحد عند ذلك. فقال: ويحك حض الأوس والخزرج فقال: يا معشـــر الأوس والخزرج. هذا رسول الله يدعوكم. فلم يجبه أحد عند ذلك. فقال: ويحك ادع المهاجرين، فإن لله في أعناقهم بيعة.

فحدثني بريدة أنه أقبل منهم ألف قد طرحوا الجفون[1] وكسروها، ثم أتوا رسول الله ﷺ حتى فتح عليهم»[2]

وأحد الصحابة يقول: «انطلق الناس، إلا أن مع رسول الله ﷺ رهطاً من المهاجرين والأنصار وأهل بيته غير كثير، وفيمن ثبت معه ﷺ أبو بكر وعمر، ومن أهل بيته علي بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب وابنه الفضل بن عباس وأبو سفيان بن الحارث وأيمن بن عبيد، وهو ابن أم أيمن، وأسامة بن زيد»[3]

هذا ما يحدث في المقدمة، أما في المؤخرة فقد كانت هناك امرأة ثابتة تفوقت على كثير من المحاربين الرجال.. إنها المرأة التي سجلت حضورها لمعظم معارك النبي ﷺ «أم أنس بن مالك» أو أم ســـليم، أو زوجة أبي طلحة المقدام.. كانت رضي الله عنها تتأهب بخنجر للمشركين، بل لمن يولي هارباً من الطلقاء!!

يقـــول ابنها «أنس: إن أم ســـليم اتخذت يوم حنين خنجـــراً، فكان معها فرآها أبو طلحة فقال: يا رسول الله هذه أم سليم معها خنجر؟ فقال لها رسول الله ﷺ: ما هذا الخنجر؟ قالت: اتخذته إن دنا مني أحد من المشـــركين بقرت به بطنه. فجعل رســـول

---

(١) أي رموا الجفون وهي أغمدة السوف.

(٢) سنده صحيح رواه ابن أبي شيبة ٧-٤١٧ حدثنا الفضل بن دكين حدثنا يوسف بن صهيب عن عبد الله بن بريدة مرسلاً وآخره متصل وليس كما في المطالب حيث وهم الهيثمي رحمه الله، فوصله فالذي وصله هو الروياني ١-٧٣ حدثنا محمد بن إسحاق حدثنا عبيد الله بن موسى أنا يوسف به موصولاً.

(٣) حديث صحيح مر معنا وهو عند ابن إسحاق.

الله ﷺ يضحك. قالت يا رسـول الله: اقتل من بعدنا من الطلقاء.. انهزموا بك. فقال رسول الله ﷺ: يا أم سليم إن الله قد كفى وأحسن»[1]

فقد نظم ﷺ أصحابه من جديد، ثم هجم بهم على المشركين، وهب علي ابن أبي طالب وشجاع آخر من الأنصار نحو حامل الراية حتى استطاعوا:

إسقاط راية المشركين

فقد كان «رجل من هوازن على جمل له أحمر في يده راية سـوداء، في رأس رمح طويل له أمام الناس، وهوازن خلفه، فإذا أدرك طعن برمحه، وإذا فاته الناس رفعه لمن وراءه. فاتبعوه.

قـال جابر بن عبد الله: بينـا ذلك الرجل من هوازن صاحب الراية على جمله ذلك يصنـع ما يصنع، إذا هوى له علي بن أبي طالب ورجل من الأنصار يريدانه، فيأتيه علي من خلفه فضرب عرقوبي الجمل، فوقع على عجزه. ووثب الأنصاري على الرجل فضربه ضربـة أطن قدمه بنصف سـاقه، فانعجف عن رحله، واجتلـد الناس، فوالله ما رجعت راجعة الناس من هزيمتهم حتى وجدوا الأسرى مكتفين عند رسول الله ﷺ»[2]

فعاد النصر إلى أصحابه و:

نزلت المعجزة

يقول (سلمة بن الأكوع) أحد الذين رأوها: «تقدمت فأعلو ثنية، فاستقبلني رجل من العدو، فأرميه بسـهمه فتوارى عني فما دريت ما صنع؟ ونظرت إلى القوم فإذا هم قد طلعوا من ثنية أخـرى، فالتقوا هـم وصحابة النبي ﷺ فولى صحابة النبي ﷺ، وأرجـع منهزماً وعلي بردتان متـزراً بإحداهـما مرتدياً بالأخرى، فاسـتطلق إزاري، فجمعتهما جميعاً ومررت على رسـول الله ﷺ منهزماً وهو على بغلته الشـهباء، فقال رسـول الله ﷺ: لقـد رأى ابن الأكوع فزعاً..؟

---

(١) صحيح مسلم ٣-١٤٤٢.

(٢) سـنده صحيح مر معنا رواه ابن إسـحاق: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن ابن جابر عن أبيه جابر بن عبد الله: السيرة النبوية ومن طريقه الإمام أحمد ٣-٣٧٦.

فلما غشـوا رسـول الله ﷺ نزل عن البغلة، ثم قبض قبضة من تراب من الأرض، ثم استقبل به وجوههم فقال: شاهت الوجوه.

فمـا خلق الله منهم إنسـاناً إلا ملأ عينيـه تراباً بتلك القبـض،ة فولوا مدبرين فهزمهم الله عز وجل»[1]

وقد اختصر سلمة أحداثاً رآها غيره قبل أن يقول النبي ﷺ:

شاهت الوجوه

فالعباس كان هناك.. يرى ويقاتل ويروي تفاصيلاً فاتت سـلمة فيقول: «لزمت أنا وأبو سـفيان بن الحارث بن عبد المطلب رسـول الله ﷺ فلم نفارقه، ورسول الله ﷺ على بغلة له بيضاء أهداها له فروة بن نفاثة الجذامي، فلما التقى المسـلمون والكفار ولى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته قبل الكفار. قال عباس: وأنا آخذ بلجام بغلة رسـول الله ﷺ أكفها إرادة أن لا تسرع، وأبو سفيان ابن الحارث آخذ بركاب رسول الله ﷺ.

فقال رسـول الله ﷺ: أي عباس ناد أصحاب السـمرة. فقال عباس وكان رجلاً صيتاً: فقلت بأعلى صوتي: أين أصحاب السمرة؟

فوالله لكأن عطفتهم حين سـمعوا صوتي عطفة البقر علـى أولادها، فقالوا: يا لبيك.. يا لبيك. فاقتتلوا والكفار، والدعوة في الأنصار يقولون: يا معشر الأنصار.. يا معشر الأنصار.

ثـم قصرت الدعوة علـى بني الحارث بن الخـزرج، فقالوا: يا بنـي الحارث بن الخزرج.. يا بني الحارث بن الخزرج.

فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم، فقال رسول الله ﷺ: هذا حين حمي الوطيس.

ثم أخذ رسـول الله ﷺ حصيات فرمى بهن وجـوه الكفار، ثم قال: انهزموا ورب محمد...

---

(١) صحيح مسلم ٣-١٤٠٢.

فذهبت أنظر فإذا القتال على هيئته فيما أرى، فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته، فما زلت أرى أحدهم كليلاً وأمرهم مدبراً»[1] حتى انقشع الغبار، فإذا ساحة الحرب أكوام من القتلى و«الأسرى مكتفين عند رسول الله ﷺ»[2]

أما الغنائم فهائلة لا تعد ولا تحصى.. إنها ثروة هوازن وما تملك كاملة، وثروة من جاء معها من المشركين.. تحولت إلى أيدي المسلمين، بعد أن كادت تضيع منهم ويضيع معها ما هو أثمن. ليس هناك ألفاظ تعبر عما جرى مثل كلمات الله ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ﴾.

وبعد أن هدأ كل شيء «التفت رسول الله ﷺ إلى أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وكان ممن صبر يومئذ مع رسول الله ﷺ، وكان حسن الإسلام حين أسلم، وهو آخذ بثفر بغلته.

فقال من هذا؟ قال: أنا ابن أمك يا رسول الله»[3].

يقول أبو قتادة: ثم إن «الناس رجعوا وجلس النبي ﷺ فقال: من قتل قتيلاً له عليه بينة فله سلبه. فقمت فقلت: من يشهد لي. ثم جلست، ثم قال: من قتل قتيلاً له عليه بينة فله سلبه. فقمت فقلت: من يشهد لي. ثم جلست. ثم قال الثالثة مثله، فقمت، فقال رسول الله ﷺ: ما لك يا أبا قتادة؟ فاقتصصت عليه القصة.. فقال رجل: صدق يا رسول الله، وسلبه عندي فأرضه عني.

فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: لا ها الله إذا لا يعمد إلى أسد من أسد الله يقاتل عن الله ورسوله ﷺ يعطيك سلبه!!

---

(١) صحيح مسلم ٣-١٣٩٨.

(٢) آخر حديث ابن إسحاق الصحيح الماضي.

(٣) آخر حديث ابن إسحاق الصحيح الماضي.

فقـال النبي ﷺ: صدق فأعطه. فبعت الدرع، فابتعت به مخرفاً في بني سـلمة، فإنه لأول مال تأثلته في الإسلام»[1]

هذه هي سـنة النبي ﷺ في سـلب المقتول وهي غير الغنائم، فالغنائم تم توزيعها من قبل الله سـبحانه الذي قال: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أما السـلب فهو أسـلحة وأمتعة المقاتل المشرك الشخصية، وهو من نصيب من يقتله من المؤمنين أثناء المعركة، وللسلب قيمـة معنوية تحفيزية على الإقدام أثنـاء المعركة.. حيث يقول ﷺ: «من قتل قتيلاً له عليه بينة فله سلبه»[2]

ولما سمع الصحابة هذا الكلام منه ﷺ جاء أبو طلحة لأخذ ما يستحق. يقول أنس بن مالك: «قال رسـول الله ﷺ يومئذ: من قتل كافراً فله سلبه. فقتل أبو طلحة يومئذ عشرين رجلاً فأخذ أسلابهم»[3]

أمـا الغنائم الهائلة فلم يقسـمها النبي ﷺ حتـى الآن، وتوزيعها ليس في قائمة اهتماماته الآنية، فهناك أخطار ملحة تحتاج إلى حل عاجل جداً.. هناك الطائف الذي شارك زعماؤه ورجاله في هذه المعركة، ثم لجأوا بعد الهزيمة إليه، وهم الآن في حصن منيع يحتاج إلى تفكير عسكري ناضج. وهناك الفلول المنهزمة من هوازن وغطفان ومن معهم، وهي تحتـاج إلى معالجة جادة، فالظروف قد تغيرت، ومكة قد فتحت، ومعظم العرب الآن تحت لواء التوحيد، لذلك قرر ﷺ:

حبس الغنائم في الجعرانة

فنادى رسـول الله ﷺ أحد الصحابة واسـمه: بديل بن ورقاء فجعله أميراً على الغنائـم، وأمره أن يأخذها إلـى الجعرانة، وهو مكان قريب من مكة لكنه خارج الحرم مثل التنعيم.

---

(١) صحيح البخاري ٣-١١٤٤.

(٢) صحيح مسلم ٣-١٣٧١.

(٣) سـنده صحيح رواه ابن أبي شـيبة ٧-٤١٩ وغيره من طرق عن حماد بن سلمة عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس. إسحاق تابعي ثقة حجة: التقريب ١٠١.

يقــول بديل عن مهمتــه: «إن النبي ﷺ أمــر بديلاً أن يحبس الســبايا والأموال بالجعرانة حتى يقدم عليه. فحبســه»[1] ثم تفقد النبي ﷺ جيشــه ودفن من استشهد منهــم، واطمأن على إصابات أفراده خاصة القــادة المصابين، وكان أحد القادة الذين أصيبوا خالد بن الوليد، وهو مســئول عن قســم من خيل جيش المســلمين، فجاء ﷺ بنفسه، وسأل واطمأن على إصابة خالد بن الوليد.

يقول أحد الصحابة: «إن خالد بن الوليد بن المغيرة جرح يومئذ، وكان على الخيل.. خيل رسول الله ﷺ، وقد رأيت رسول الله ﷺ بعد ما هزم الله الكفار، ورجع المسلمون إلى رحالهم يمشي في المسلمين، ويقول: من يدل على رحل خالد بن الوليد.؟

فمشــيت بين يديه وأنــا محتلم أقول: من يدل على رحــل خالد؟ حتى حللنا على رحله، فإذا خالد بن الوليد مســتند إلى مؤخرة رحله، فأتاه رسول الله ﷺ، فنظر إلى جرحه، ونفث فيه رسول الله ﷺ»[2].

وقــد أصيب من الصحابــة: عبد الله بن أبي أوفى، حيث يقــول أحد الذين رأوا إصابته: «رأيت بِيَدِ ابن أبي أوفى ضربة. قال ابن أبي أوفى: قد ضربتها مع النبي ﷺ يوم حنين»[3]

وهنــاك إصابات أخرى عديدة ألمــت ببعض الصحابة أثناء المعركــة، لكن هناك ما هو أكثر من تفقد الجرحى والصلاة على الشــهداء، فقد كان الإســلام على تلك الساحة حاضراً بكليته.. بسماحته وعدله. فعلى تلك الأرض وبعد انتهاء معركة حنين، وبينما كان النبي ﷺ يتفقد جرحاه.. أحضر بعض الصحابة رجلاً من المسلمين.. ابتلى بحب الخمر، فشربها، فسكر وهو في ظرف تتجول فيه المنايا بين الجنود. ولما مثل بين يديه ﷺ وتأكد من ارتكابه لجريمة الشرب أمر بـ:

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه البخاري في التاريخ الكبير ٢-١٤١ والطبراني ٢-٣٠ حدثني بن أبي عبلة عن بن بديل بن ورقاء عن أبيه. وشيخه تابعي ثقة والبقية صحابة واسم ابن أبي عبلة: إبراهيم وهو من رجال الشيخين: التقريب ٩٢.

(٢) ســنده صحيح رواه أحمــد ٤-٨٨: حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن الزهري قــال وكان عبد الرحمن بن الأزهر يحدث وعبد الرزاق هو الإمام الثقة صاحب المصنف وشــيخه معمر ثقة ثبت فاضل التقريب ٥٤١ والزهــري رأس طبقته وشــيخه صحابي. وبعد كلمة جرحه «قال الزهري: وحســبت أنه قال» وجاء عند الحميدي بسند صحيح وعند غيره الجزم بها.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٦٨.

إقامة الحد على شارب الخمر

يقول أحد الصحابة: «رأيت النبي ﷺ عام حنين سأل عن رحل خالد ابن الوليد، فجريت بين يديه أسأل عن رحل خالد بن الوليد حتى أتاه جريحاً، وأتي النبي ﷺ بشارب فقال: اضربوه.

فضربوه بالأيدي والنعال وأطراف الثياب، وحثوا عليه من التراب، ثم قال النبي ﷺ: بكتوه. فبكتوه ثم أرسله»[1]

وقد طهر من ذنبه الذي ارتكبه، لكي يعود من جديد لمشاركة إخوته في جهادهم ونشر دين ربهم، فالمسلم لا يدع للمعصية فرصة لإعاقته عن البذل في سبيل الله، والإبداع في مرضاته.. هي كبوة أو كبوات، لكنها ليست أغلالاً إلا عند من يجهل أعماق هذا الدين وآفاقه، أو عند من لا يرى في الآخرين سوى الزوايا المعتمة.. متغاضياً عن تلك الجوانب الجميلة والوضاءة، ومتغاضياً عن تلك العتمة القابعة في أعماقه هو.

نهض ذلك الصحابي مع إخوته خلف نبيهم ﷺ الذي أمر بالتوجه لـ:

حصار الطائف

توجه ﷺ إلى الطائف لحصاره.. في الوقت الذي بعث فيه أبا عامر الأشعري لملاحقة مجموعة من المقاتلين.. كانوا تحت توجيه الشاعر الجاهلي الكبير دريد بن الصمة في معركة سميت:

غزوة أوطاس وقتل دريد بن الصمة

حيث أوكل قيادة هذه السرية إلى أبي عامر الأشعري وذلك «لما فرغ النبي ﷺ من حنين، بعث أبا عامر على جيش إلى أوطاس فلقي دريد بن الصمة، فقتل دريد وهزم الله أصحابه

---

(١) سنده صحيح رواه الشافعي في مسنده ١-٢٨٥ وغيره. أخبرنا معمر عن الزهري عن عبد الرحمن بن أزهر قال: وهذا السند صحيح وهو السند الذي مر معنا قبل قليل.

قال أبو موسى: وبعثني مع أبي عامر، فرمي أبو عامر في ركبته، رماه جشمي بسهم فأثبته في ركبته، فانتهيت إليه فقلت: يا عم من رماك؟

فأشار، فقال: ذاك قاتلي الذي رماني. فقصدت له فلحقته، فلما رآني ولى فاتبعته، وجعلت أقول له: ألا تستحي؟ ألا تثبت؟ فكف، فاختلفنا ضربتين بالسيف فقتلته، ثم قلت لأبي عامر: قتل الله صاحبك. قال: فانزع هذا السهم. فنزعته فنزا منه الماء.

قال: يا ابن أخي أقرئ النبي ﷺ السلام، وقل له: استغفر لي. واستخلفني أبو عامر على الناس فمكث يسيراً ثم مات، فرجعت فدخلت على النبي ﷺ في بيته على سرير مرمل، وعليه فراش قد أثر رمال السرير بظهره وجنبيه، فأخبرته بخبرنا وخبر أبي عامر وقلت له: قال: قل له: استغفر لي.

فدعا بماء فتوضأ، ثم رفع يديه فقال: اللهم اغفر لعبيد أبي عامر. ورأيت بياض إبطيه ثم قال: اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك من الناس. فقلت: ولي، فاستغفر.

فقال: اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه، وأدخله يوم القيامة مدخلاً كريماً»[1]

أثناء تلك القصص المؤثرة، والدعوات الجميلة.. كان الطائف محاطاً بالقوات الإسلامية المنتصرة المتوثبة، لكن الحصار قد طال مدة أحصاها أحد المقاتلين بقوله: «انطلقنا إلى الطائف فحاصرناهم أربعين ليلة»[2] وهم في حصنهم المنيع، فلم يستطع المسلمون اقتحامه وفتحه، وقد استخدم النبي عليه الصلاة والسلام كافة المحفزات على الفتح لدى جنوده.. حسب الوسائل والإمكانات المتاحة. ولم يكن هناك أفضل من الرمي بالسهام بعد تحصن أهل الطائف داخل قلعتهم.

يقول أحد الصحابة الذين استجابوا: «حاصرنا مع رسول الله ﷺ حصن الطائف، فسمعت رسول الله ﷺ يقول: من بلغ بسهم في سبيل الله، فهو له عدل محرر[3]

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري ٤-١٥٧١.
(٢) صحيح مسلم ٢-٧٣٦.
(٣) أجر عتق رقبة

فبلغت يومئذ بستة عشر سهماً، فسمعت رسول الله ﷺ يقول: من رمى بسهم في سبيل الله عز وجل، فهو له درجة في الجنة، ومن شاب شيبة في الإسلام، كانت به نوراً يوم القيامة، وأيما رجل مسلم أعتق رجلاً مسلماً، فإن الله عز وجل جاعل وفاء كل عظم من عظامها محرر من النار، وأيما امرأة مسلمة أعتقت فإن الله عز وجل جاعل وفاء كل عظم من عظامها محرر من النار»[1]

كان النبي ﷺ يجفف منابع الرق حول أسوار الطائف، بل داخل أسوار الطائف، فبعد أن فشلت الأسهم فلم تُجْدِ شيئاً، ورد أهل الطائف عليها، فاستشهد صحابيان جليلان، وسقطا دون أسوار الطائف المنيعة.. لجأ النبي ﷺ إلى استخدام أساليب جديدة في حربه مع مشركي الطائف.. من هذه الأساليب أسلوب نقل الحرب إلى داخل أسوار الطائف دون تكبد خسائر، أو حتى أدنى مشقة، بأسلوب جديد.. بالتحريض على التمرد والعصيان العام، وذلك بتقديم إغراءات لمن يقوم بـ:

التمرد والفرار من أسوار الطائف

هذا العرض يستفيد منه أناس لهم ثقلهم في حرب المدن، وهم الأرقاء، وهو عرض يواصل تجفيف الرق داخل الطائف نفسها، هذا العرض ينص على أن من هرب من ديار الشرك من العبيد، إلى معسكر المسلمين فهو حر، كما حدث قبل عامين في الحديبية.

وقد استجاب ثلاثة وعشرون من أرقاء الطائف، فهربوا وتدلوا كالفرح من تلك الأسوار.. أبرزهم رجل يدعى أبو بكرة الذي «نزل إلى النبي ﷺ ثالث ثلاثة وعشرين من الطائف»[2] حصل المسلمون على بعض ما أرادوا، وانقذف الرعب في قلوب المشركين، وأدركوا أن الفتح إن لم يحدث اليوم فهو قادم لا محالة.

أما في معسكر المسلمين فالدولة الإسلامية كانت تمارس أنشطتها خلف أسوار الطائف، وكأن الدولة ليست في حالة حرب. كان ﷺ يمارس دوره التربوي

---

(١) سند صحيح رواه الطيالسي ١-١٥٧ وغيره من طريق هشام عن قتادة عن سالم بن أبي الجعد عن معدان ابن أبي طلحة اليعمري عن أبي نجيح السلمي. وهشام الدستوائي ثقة ثبت: وشيخه إمام ثقة وسالم وشيخه تابعيان ثقتان. التقريب ٥٣٦ و٢٢٦

(٢) صحيح البخاري ٤-١٥٧٣.

حتى في ظروف الحرب، فالقائد المسلم لا يتخلى عن مبادئه ومرتكزاته.. هي زاده وجراب زاده.

كان ﷺ يصحب زوجاته في تلك المعركة، وبينما هو متوجه نحو خباء زوجته أم سلمة سمع كلمة أزعجته، فبادر إلى إصلاحها وإصلاح قائلها وسامعها أيضاً. حيث كان ضمن جيش المسلمين شخص لم يتحدد جنسه حتى الآن: هل هو ذكر أم أنثى؟

وكانوا يطلقون على هذا النوع من الناس لقب: (المخنث) وكان هذا الشخص جالساً عند أم سلمة، ويتحدث إلى أحد الصحابة بلهجة الرجال الذين يميلون إلى النساء.. كان يتكلم بطريقة فيها من قلة الذوق أمام النساء ما أغضب النبي ﷺ.. حيث تقول «أم سلمة رضي الله عنها: دخل علي النبي ﷺ وعندي مخنث فسمعه يقول لعبد الله ابن أمية: يا عبد الله أرأيت إن فتح الله عليكم الطائف غداً، فعليك بابنة غيلان، فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان»[1] إنه يصف امرأة بعينها، ويسميها، ويغري أحد المسلمين بجسدها الممتلئ حتى تثنى بطنها من الأمام فأصبح أربعة أحزمة دهنية، لدرجة أن بإمكانه رؤية أطراف تلك الأحزمة الدهنية من خلفها، لأنها تطل من جوانبها.. أربعة من الجانب الأيمن ومثلها من الجانب الأيسر، عندها «قال النبي ﷺ لا يدخلن هؤلاء عليكن»[2]. فهذا الشخص يبدو أنه خبير بالطائف أو من أهلها، وبدلاً من أن يكشف للمسلمين نقاط ضعف فيها.. تؤدي إلى فتحها. أشغل نفسه بكشف العورات وإثارة غرائز المجاهدين، ويبدو أنه يجهل أحكام الجهاد الصارمة، وحرمة أعراض الأعداء حتى في حالة السبي، وأن هناك أحكاماً للنصر يرجع فيها للنبي ﷺ، فليس في نظام الجهاد إباحية أو همجية، أو انتقام أو مقابر جماعية، أو اغتصاب في غمرة الانتشاء بالنصر.. هناك انضباط وخوف من الله، فالمسلم لم يخرج طلباً للنساء، ولا للمال والشهرة، بل خرج لتكون كلمة الله هي العليا، وللدفاع عن انتشار تلك الكلمة، أو الموت في سبيل الله. أما من يتهور في انتهاك الحرمات.. بدعوى أن أولئك النساء كافرات، فهو يرتكب حماقة وجريمة خلقية تستحق اللعن، ولما حاول أحد المسلمين فعل ذلك مع امرأة حامل.. غضب النبي ﷺ غضباً كاد الرجل أن يحترق به، وذلك لما «أتى بامرأة مجح على باب فسطاط فقال: لعله يريد أن يلم بها؟

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٥٧٢.

(١) صحيح البخاري ٤-١٥٧٢.

فقالوا: نعم. فقال رسول الله ﷺ: لقد هممت أن ألعنه لعناً يدخل معه قبره. كيف يورثه وهو لا يحل له! كيف يستخدمه وهو لا يحل له؟!»[1]

لم يفلح ذلك الشخص بنصيحته، بل خسر ثقة النبي ﷺ وأصحابه، وخسر توقعاته بفتح الطائف، حيث طالت مدة الحصار ولم تفلح جهود المسلمين في اقتحامها. لذلك قرر ﷺ العودة إلى الجعرانة حيث تقبع الغنائم والسبي، لكن بعض الصحابة تضايق من العودة دون دخول الطائف في الإسلام، مما جعلهم يعترضون على العودة ويصرون على القيام بـ

آخر محاولة لفتح الطائف

وذلك «لما حاصر رسول الله ﷺ الطائف لم ينل منهم شيئاً قال: إنا قافلون إن شاء الله. فثقل عليهم وقالوا: نذهب ولا نفتحه؟!

فقال: اغدوا على القتال. فغدوا، فأصابهم جراح.

فقال: إنا قافلون غداً إن شاء الله. فأعجبهم. فضحك النبي ﷺ»[2] ثم أمر أصحابه بـ

العودة إلى الجعرانة

حيث تحرك الجيش تاركاً مشركي الطائف في حيرة من أمرهم، فالشرك يذبل يوماً بعد يوم، ومحمد يملك الجزيرة شبراً فشبراً، وشمس التوحيد تشرق على الجميع إلا عليهم، وأعوانهم وعضدهم أسرى في أيدي المسلمين.. قد تكوموا في الجعرانة كالذل.. نساء وأطفال ورجال وشيوخ، وأموال وبهائم لا تعد ولا تحصى، ورغم عجز المسلمين عن فتح الطائف، إلا أنهم لم يعجزوا عن إيقاظ الإيمان المنطمر في أعماق أهل الطائف تحت أرتال العادات والتقاليد الجاهلية. أما هوازن فقد خسرت كل شيء إلا قلب النبي ﷺ.. كان أفسح من حنين لهم ولأبنائهم ونسائهم وأطفالهم. لقد كان ﷺ

---

(٢) صحيح مسلم ٢-١٠٦٥.

(١) صحيح البخاري: ٤-١٥٧٢.

أرحم بهؤلاء من قادتهم الذين ساقوهم وخاطروا بهم، بل كان أرحم بهم من أنفسهم، فعندما وصل ﷺ إلى الجعرانة لم يبادر إلى تقسيم شيء من الغنائم أو السبي على أصحابه، فقد كان:

النبي يريد رد الغنائم على هوازن

ولذلك انتظر عودتهم على أرض الجعرانة أياماً قال عنها أحد الصحابة: «وكان النبي ﷺ انتظرهم بضع عشرة ليلة، حين قفل من الطائف»[1] ولما لم يعودوا قام عليه السلام بـ:

توزيع الغنائم

وقد كانت طريقة النبي ﷺ في توزيع الغنائم على غير المعتاد.. كانت طريقة تناسب هذه الظروف الجديدة تماماً، فقد دخل في الإسلام أعداد لا حصر لها ما بين يوم وليلة، وهذه النوعية من الناس تحتاج إلى من يعمق جذور الإيمان الغضة الطرية في داخلها، لأنها عرضة للتلف في العراء. وقد تبين ذلك قبل أيام على أرض حنين.. عندما هرب الأعراب والطلقاء ومن أسلم حديثاً، وتركوا النبي ﷺ على أرض المعركة.. كانت كثرتهم غير مجدية، بل ضارة ومعيقة، ومن أجل هذا انسابت الغنائم بشكل أثار استغراب الكثيرين، لكنه بُعْد نظر النبي ﷺ وسعة أفقه. فرغم أن تلك الغنائم كانت هائلة جداً، وكثيرة جداً، إلا أن شيئاً منها لم يذهب إلى أحق الناس بها، وهم الأنصار.. كانت غنائم حنين تقييماً للإيمان والمؤمنين.. كان توزيعها نقلة نوعية في طريقة الدعوة عند ما تتهاوى الدول أمام زحف الدولة الإسلامية، لأن الشدة وحدها تفرز تلك النوعيات الفذة والممتازة من الرجال، أما الرخاء فحلفاء الرخاء والرفاه كثيرون.

بدأ ﷺ بتوزيع الغنائم فهجم الأعراب الذين هربوا من المعركة عليه بأسلوب فوضوي.. قال عنه أحد الذين كانوا برفقته ﷺ في تلك اللحظات: «إنه بينما يسير هو مع رسول الله ﷺ ومعه الناس مقفلة من حنين، فعلقه الناس يسألونه حتى اضطروه إلى

---

(١) صحيح البخاري ٢-٩٢٠.

سمرة، فخطفت رداءه، فوقف النبي ﷺ فقال: أعطوني ردائي، لو كان لي عدد هذه العضاه نعماً لقسمته بينكم ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذوباً ولا جباناً»[1] ثم حذرهم عليه السلام من الغلول، وهو الاختلاس من الغنائم دون إذن منه، فكانت هذه القصة الأنصارية:

قصة الأنصاري وخيوط الشعر

وذلك بعد أن: «اتبعه الناس يقولون: يا رسول الله اقسم علينا فيئنا من الإبل والغنم، حتى ألجؤوه [إلى سمرة]، فاختطفت الشجرة عنه رداءه فقال: ردوا علي ردائي أيها الناس، فوالله لو كان لي عدد شجر تهامة نعماً، لقسمتها عليكم، ثم ما لقيتموني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً.

ثم قام إلى جنب بعير فأخذ وبرة من سنامه فجعلها بين أصبعيه، ثم رفعها فقال: أيها الناس إنه والله ليس لي من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس، والخمس مردود عليكم. فأدوا الخياط والمخيط، فإن الغلول يكون على أهله عاراً ونارا وشناراً يوم القيامة.

فجاءه رجل من الأنصار بكبة من خيوط شعر فقال: يا رسول الله.. أخذت هذه الكبة أعمل بها برذعة بعير لي دبر.

قال: أما نصيبي منها فلك. فقال: إنه إذا بلغت هذه فلا حاجة لي بها ثم طرحها من يده»[2]. فلا حاجة لهذا المجاهد في إفساد جهده وجهاده من أجل كنوز الدنيا، فكيف يفسده من أجل كومة من شعر تافه رخيص.

هذا هو مفهوم المال العام في الإسلام.. إنه للأمة، فالصحابة قالوا: اقسم علينا فيئنا. فلم ينكر عليهم عليه السلام، بل أكد ذلك بقوله: (أيها الناس إنه والله ليس لي من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس، والخمس مردود عليكم) كما أنه حذرهم من التعامل مع هذا المال وأخذه دون إذن الإمام.

هذا هو الجيش الإسلامي المنطلق من الكتاب والسنة، لا من ثكنات التشريعات العسكرية البشرية، التي عجزت عن ضبط جنودها عن النهب والسلب والاغتصاب

---

(١) صحيح البخاري ٣-١٠٣٨.

(٢) سنده حسن رواه ابن إسحاق ومن طريقه الطبري ٢-١٧٥ والبيهقي في الكبرى ٦-٣٣٦ وغيرهما قال حدثني عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال وهو سند حسن مشهور والزيادة لأحمد ٢-١٨٤.